مجلة علمية يصدرها مركز دراسات الخليج العربي / جامعة البصرة ـ الجمهورية العراقية

ملاحظات حول تغلغل اساليب النفوذ الاوربي في الخليج العربي ... قبل الحرب العالمية الاولى

الدكتور عبدالجبار عطيوي جاسم
جامعة بغداد

شهدت مناطق حوض الخليج العربي التغلغل الاوربي منذ بدايات ظهوره اي في عهد الاستكشافات الجغرافية الكبرى عندما توجه الباحثون عن الذهب والتوابل والعبيد نحو الشرق تدفعهم الى ذلك التطورات ـ المهمة التي هزت الكيان الاقتصادي ـ الاجتماعي لشعوب اوربا الغربية فبدات تودع عهدا اقطاعيا باليا وتستقبل عهدا راسماليا متقدما جديدا له متطلباته الخاصة واساليبه المميزة المتغيرة بسرعة . من هنا فأن المنطقة عاصرت جميع مراحل التغلغل الكولونيالي ، بما فيها مرحلته المبكرة التي توافقت مع بدايات عملية تراكم راس المال في الوطن الام ، فاصبحت بحكم ذلك تتميز بأساليب اعتدائية صارخة شهدت السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة ومداخل الخليج ابشع صورها المأساوية . واصبح « البرتغاليون ـ حسب تعبير قدرى قلعجي الموفق ـ اول نذر الشر »(١) . فمع توجههم على راس فاسكو دى كاما نحو الهند في عام ١٤٩٧ بحثا عن طريق قصير جديد وجدوا السبيل ايضا ، وبمساعدة ملاحين مجربين عرب من امثال احمد بن ماجد الذي فاقت شهرته جميع معاصريه(٢) ، الى مياه الخليج فقدروا بسرعة اهميته السوقية وفطنوا الى الثروات الكامنة في قيعان مياهه الضحلة وبين محاوره المرجانية الاخاذة .

فتحت حملة فاسكو دى كاما ـ وكان في ذلك فضل كبير « لليث البحر »(٣) ابن ماجد آفاقا واسعة امام البرتغاليين الذين تحققت احلامهم بالوصول الى ثروات الشرق الطائلة بسهولة ، فبداوا منذ عودة الحملة الى لشبونة بسفينتين محملتين بالتوابل وكانت تعادل انذاك الذهب سعرا ، بتنظيم حملات كبيرة كانت تضم احيانا عشرين سفينة مزودة باحسن المدافع المتطورة وبعدد كبيرة من الجند جالبين معهم الاستغلال في ابشع صوره الى الهند وفي طريقه الى حوض الخليج العربي وبحره . ومنذ البداية وضع البرتغاليون نصب اعينهم مهمة القضاء على التفوق التجاري العربي في المحيط الهندي ، بما في ذلك سواحل البحر العربي ومداخل خليجه ومن اجل ضمان سيطرتهم المطلقة تحولوا الى قراصنة يمارسون ابشع الاساليب ضد السفن العربية والهندية

(١) قدرى قلعجي ، الخليج العربي ، دار الكاتب العربي ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٣٥٩

(٢) بفضله تمكن فاسكودى كاما من تحقيق نتائج في غاية الاهمية توجها بالكشف عن طريق جديد الى الهند ودشن به بداية العهد الكولونيالي في شبه القارة الهندية والسواحل الجنوبية من الجزيرة العربية مع حوض الخليج (للتفصل حول ابن ماجد راجع « تاريخ العصور الوسطى » مجموعة مؤلفين باللغة الروسية الجزء الثاني موسكو ١٩٦٦ ص ٤٤ـ٤٥ د . شاكر خصباك في الجغرافية العربية دراسة في التراث الجغرافي العربي بغداد ٩٧٥ ، ص ٣٩٥ـ٣٩٦

(٣) كان هكذا يلقب

التجارية في مياه المحيط ، يستولون على حمولاتها ويقتلون ملاحيها . وقد فاق البوكيرك ـ احد معاوني فاسكودى كاما في حملته مواطنيه البرتغاليين في هذا المجال فاستحق ، حسبما يبدو منصب نائب الملك البرتغالي في الهند ومناطق المحيط الهندي الاخرى بما فيها سواحل الخليج العربي وفي رأى هذا المحتل الكولونيالي المبكر انه كان على البرتغاليين السيطرة على جميع المناطق الستراتيجية وسد كل المنافذ البحرية بوجه العرب وقام من اجل ذلك باحتلال سوقطرة عند مدخل البحر الاحمر ومضيق هرمز الذي يعتبر اهم نقطة ستراتيجية ـ تجارية في مدخل الخليج العربي . كما قامت سفنه من جانب اخر بقصف المدن الساحلية في جنوبي شبه الجزيرة العربية بدون رحمة وعلى مدى سنتين كاملتين مما ادى الى انتشار الفزع والرعب في المنطقة باسرها (٤) . ومن الجدير بالذكر ان الخيبة في نفوس سكان المنطقة بلغت حدا انهم اعتبروا مجيء البرتغاليين بمثابة حملة صليبية جديدة (٥) ، حتى ان ابن ماجد ندم على صنيعه مع فاسكودى كاما فوصف في ارجوزة له بدقة حكم «البرتغال الكفرة» و «بغضهم للاسلام» و « خوف الناس » منهم و « صنعة الكذب » و « نقض العهد » ـ لديهم(٦) مما يشكل مصدرا اصيلا يروى مشاعر شاهد عيان غير اعتيادي .

حدد البرتغاليون بسرعة اهمية الخليج العربي بالنسبة لخططهم الطموحة في الهند فكان البوكيرك يعتقد بان ضمان السيطرة على شبه القارة الهندية وما يجاورها من اصقاع انما تتأتى من خلال السيطرة المحكمة على ثلاثة منافذ ستراتيجية مهمة هي منطقة سنغافورة وعدن مع مضيق هرمز(٧) ، وهو امر ادخله البرتغاليون في حساباتهم ، كما اعاره الاخرون من الاوربيين جانبا كبيرا من اهتمامهم .

لكن سرعان ما افل نجم البرتغاليين في المنطقة، وكان ذلك نتيجة حتمية فرضها بطء تطور العلاقات الرأسمالية الجديدة في « الوطن الام » وسرعة تطورها في البلدان الاوربية الاخرى ، لا سيما في انكلترا التي بزغ نجمها في افق الخليج العربي بسرعة ليضع بداية مرحلة تاريخية حاسمة اثرت بشكل خطير على مصير كل شبر من الخليج العربي ساحلا وداخلا . كان من الطبيعي ان يتخذ اهتمام انكلترا بالخليج العربي ابعادا اعمق واخطر من اهتمام البرتغال وذلك بحكم كونها اكبر دولة اوربية راسمالية متطورة ذات مصالح ثابتة في الهند وطموحات كبيرة في بلاد ما بين النهرين ومشاريع جدية بالنسبة لمناطق شتى من الامبراطورية العثمانية . وهنا يجدر بنا ان نلاحظ قبل كل شيء حقيقة مهمة اضفت طابعا خاصا على التغلغل البريطاني في الخليج العربي تتعلق بطبيعة المرحلة التي دشنت فيها بدايات ذلك التغلغل المتوافقة مع الفترة التي شهدت ازمة التغلغل الكولونيالي التقليدي المتميز باساليب قرصنية اعتدائية صارخة لاحظنا معالمها في العهد البرتغالي . وقد نجم هذا التحول عن عوامل متشابكة فيما بينها اهمها المقاومة العنيفة التي ابدتها شعوب المنطقة ضد الغزو الكولونيالي منذ ايامها الاول (٨) ، يأتي بمستواها الصراع الدولي ـ من اجل مناطق النفوذ الذي قضى على ما يمكن وصفه بالاحتكار السابق الذي كان ـ يعطي الدول الغازية مجال التحرك المطلق ، ثم ان تطور العلاقات الرأسمالية في الداخل فرض تطورا واضحا على اساليب التغلغل في الخارج التي اصبحت تتميز في مرحلتها الجديدة بالمناورات السياسية والتخطيط الدبلوماسي الدقيق الذي يأخذ ظروف المكان من جميع جوانبها بنظر الاعتبار. فقد تبنى الانكليز مثلا سياستين متناقضتين في الظاهر بالنسبة لمنطقتين متجاورتين ، فحيثما كانت الدولة العثمانية تتمتع بنفوذ قوى وحيثما كانت الدول الاوربية الاخرى تلعب ايضا دورا فعالا سواء وراء الكواليس او فوق المسرح تمسك الانكليز بشعار المحافظة على وحدة الامبراطورية وسيلة للتغلغل ، اما في المناطق الاخرى فقد انصب عملهم على تهيئة السبل للتغلغل المباشر . ان مناطق الخليج العربي كانت تدخل ضمن النوع الاخير فقد كان المجال مفتوحا فيها للتغلغل المباشر اكثر من مناطق اخرى كثيرة ، فأصبح الدفاع عن الهند هنا حجتهم الظاهرية لتحقيق مبتغاهم .

ظهرت بوادر الاتجاه الجديد بالنسبة للخليج

---

(٤) حول الجرائم البشعة التي ارتكبها رسول كولونيالي غربي في المنطقة راجع تاريخ العصور الوسطى الجزء الثاني ص ٤٣-٤٦ ، ل . ى ميدفيدكو ، رياح التغيير في الخليج باللغة الروسية ، موسكو ١٩٧٣ ، ص ١١

(٥) عادى البوكيرك الاسلام جهارا وناهض قيمه الروحية علانية

(٦) حول نص ارجوزة احمد بن ماجد راجع قدرى قلعجي نفس المصدر ، ص ٣٥٢

(٧) راجع ا . ف شفاكوف ، نهوض شبه الجزيرة باللغة الروسية ، موسكو ١٩٦٩ ص ١٨

(٨) لقي البرتغاليون مقاومة عنيفة في عدن وعمان ومناطق اخرى كثيرة ساهمت في زحزحة مواقعهم فيها .

العربي من خلال الصراع لزحزحة النفوذ البريطاني من المنطقة بطرق شتى منها التقرب من الشيوخ والاستفادة من بلاط الشاه عباس القوى ، ثم تبلور بشكل واضح بعد ذلك في ايام الحملة الفرنسية على مصر (١٧٨٩ ـ ١٨٠١) التي كانت تستهدف الهند ايضا ، فرفع الانكليز ردا على ذلك شعار الدفاع عن الهند الذي اعطوا حوض الخليج العربي فيه مكانة بارزة . بالطبع كان الانكليز يهدفون من شعارهم هذا مرامي ابعد من ردع الخطر ـ الفرنسي الوقتي الذي لم يتحول ، بسبب ظروف الحملة نفسها ، الى تهديد واقعي او جدي . انهم كانوا يريدون ايجاد مواقع اقدام ثابتة لهم في المشيخات الساحلية حتى يتمكنوا بواسطتها من الحفاظ على مصالحهم التجارية مع ايران . ثم ان الانكليز كانوا يخشون نفوذ الوهابيين في المناطق الساحلية الغربية لحوض الخليج العربي فكان عليهم تثبيت هيبتهم تحسبا لجميع الاحتمالات المتوقعة وتنفيذا لمخططاتهم البعيدة المدى التي ارتبطت في جميع الاحوال بدرة التاج البريطاني اكثر من اي شيء اخر .

وقعت مهمة تحقيق اهداف التغلغل الانكليزي المتشعبة على عاتق شركة الهند الشرقية المعروفة التي تم تأسيسها بموجب قرار خاص من الملكة اليزابث في عام ١٦٠٠ هـ وفي واقعها لم تكن شركة تجارية فحسب بل انها كانت ايضا امتدادا سياسيا وعسكريا لبريطانيا في شبه القارة الهندية وفي مناطق معينة من الشرق الاوسط ، كان يحق لها اعلان الحرب واجراء المفاوضات وعقد المعاهدات والتصرف كما تشاء بعشرات السفن الكبيرة الموضوعة تحت تصرفها . وتمكنت بفضل هذه الامكانات الكبيرة من وضع اسس ثابتة للتغلغل البريطاني مع تحقيق ارباح تجارية خيالية بلغت في حالات كثيرة ٣٠٠٪ من اصل رأس المال المستغل(٩) وبفضل نشاطاتها وجدت حوالي ٢٥ الى ٣٠ بالمائة من الدخل القومي السنوي للهند طريقها الى خزائن لندن المالية بسهولة(١٠) .

لم يعن سقوط اخر معقل للبرتغاليين في اواسط القرن السابع عشر ان الانكليز غدوا وحيدين في ميدان الخليج العربي فقد جلب الانظار للهولنديين في وقت مبكر ايضا حيث تعاونوا مع الانكليز في البداية من اجل طرد البرتغاليين من المنطقة . جاء التغلغل الهولندي متشابها في الشكل والاسلوب لذلك الذي كان عليه التغلغل اي انه تميز بدوره بخصائص العهد الجديد للتغلغل الكولونيالي ، حتى ان ـ الهولنديين كانوا يبارون الانكليز بنجاح في ميدان السياسة والمناورة مما جعل من منافستهم امرا اصعب واشد . فقد تمكنوا من اقلاق مركز شركة الهند الشرقية في ايران واوشكوا بذلك ان يحتلوا مركز الصدارة في الخليج العربي ايضا مما دفع بالانكليز الى تجربة ورقة الاتراك العثمانيين الذين سمحوا لهم بافتتاح مركز في البصرة منذ عام ١٦٤٣ ـ ، ولكن دون ان يفيدهم ذلك كثيرا في التخفيف عن الضغط الهولندي المتزايد الذي وصل حد ضرب السفن البريطانية في عرض الخليج العربي دون ادنى حساب للعواقب التي قد تترتب على الاتيان بمثل هذا العمل الاعتدائي الصريح . ولم يتبدل الموقف الا بتبدل ميزان القوى نتيجة ظهور منافس رأسمالي اوربي قوي هدد وجود الطرفين في المنطقة فقد ظهر في الحلبة منذ اواخر القرن السابع عشر الفرنسيون الذين كانوا يستندون بدورهم الى قاعدة قوية متنامية بسرعة ، كما تعرض النفوذ الهولندي في نفس الوقت الى ضغط كبير من جانب السفن والقبائل العربية التي تمكنت من وضع نهاية لوجوده في الخليج العربي وتوجيه ضربات مؤلمة ايضا لمصالح شركة الهند الشرقية فيه .

بالرغم من الظهور الفرنسي والمقاومة العربية التي تحول عمان الى رأس رمحها الفعال ، خطا الانكليز في القرن الثامن عشر خطوات جدية في طريق تثبيت مواقعهم في الخليج العربي ، الا انهم اضطروا في ظل الظروف الجديدة للالتجاء بدورهم الى اساليب اكثر التواء لتحقيق اغراضهم . فمن جهة بدأوا عن قصد يغذون اطماع ـ ايران في المنطقة ومن جهة اخرى بدأوا ـ ايضا عن قصد يسعرون نار الخلاف القبلي والديني تمشيا مع مبدأ « فرق تسد » الذي تحول الى المحرك الرئيسي لسياستهم الكولونيالية . وفعلا تمكنوا بفضل هذه السياسة من ابعاد البحرين وقطر ـ ومسقط وعدد من المشيخات الصغيرة عن عمان(١١) .

حقق الانكليز بعد ذلك مكسبا مهما بفرضهم معاهدة خاصة على مسقط في عام ١٧٩٨ ضمنوا بها اعترافه الكامل بالتفوق التجاري لشركة الهند الشرقية وبمصالح الملاحة البريطانية في منطقة نفوذه

---

(٩) ج . م تريفليان ، التاريخ الاجتماعي لانكلترا باللغة الروسية ، موسكو ١٩٥٩ ص ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٤٠٠ .

(١٠) راجع : ا . ف شفاكوف ، نفس المصدر ، ص١٩

(١١) ل . ى ميدفيدكو ، نفس المصدر ، ص ١٣

لقاء تعويض مالي قليل في حدود حوالي ثلاثة آلاف روبية (١٢) تعهد الانكليز بدفعه لمسقط مع الوعد بمساندته في صراعه ضد القبائل العمانية والذي كانوا يقفون وراء تسعير ناره . هيأت المعاهدة من جهة اخرى ظروفا افضل للانكليز في صراعهم الدائر مع الفرنسيين .

تحول مسقط منذ اواخر القرن الثامن عشر الى قاعدة انطلاق ثابتة للانكليز في حوض الخليج العربي ، لا سيما بعد ان تم في عام ١٨٠٠ تأسيس مقيمية لقطعات الاسطول الحربي الانكليزي في المنطقة . وهكذا ظهرت بفضل المكتسبات والتحولات « السلمية » هذه المستلزمات الضرورية للتحرك العسكري المبرمج من اجل انجاز بقايا مهمات التغلغل البريطاني الذي اصبحت مقاصده السياسية تزداد وضوحا وتشعبا ، بحيث غدت جزءاً متمما للسياسة الكولونيالية في الهند ومحيطه من جهة وفي اصقاع الشرق الاوسط من جهة اخرى . ففي بداية القرن التاسع عشر شن الانكليز بمساندة سلطان مسقط ثلاث حملات ناجحة ضد القواسم(١٣) وتمكنوا في عام ١٨١٩ من تحطيم الاسطول العماني بعد حرب بحرية استمرت ستة ايام فقط كانت لها مردودات سياسية مهمة خاصة اذا اخذنا بنظر الاعتبار ان الاسطول العماني كان يعتبر من اقوى اساطيل المنطقة حيث بلغ حوالي (عدد قطعه) اربعمائة سفينة حربية(١٤) لعبت دورا بارزا في عرقلة التغلغل الاوربي في الخليج العربي الذي اصبح من الان مفتوحا اكثر من السابق امام سفن شركة الهند الشرقية وامام تنفيذ الخطط الجديدة للتغلغل الاسرع الذي اصبحت معاهدة كانون الثاني عام ١٨٢٠ النموذج الامثل له وللابعاد الحقيقية للسياسة الكولونيالية في حوضي الخليج العربي .

تم التوقيع على المعاهدة المذكورة بفضل السفن الحربية الراسية في السواحل المقابلة والتي « ذكرت » الشيوخ بوجودها عندما قامت بقصف مركز لراس الخيمة قبل عقد المعاهدة باشهر قليلة مما دفع بعشرة شيوخ كبار ، على راسهم الشيخ شخبوط لوضع اختامهم الجميلة على ذيل المعاهدة التي تمسك حاكم قطر ايضا بمضمونها من غير ان يحتاج الامر الى « عناء » التوقيع عليها . لم تعارض بنود المعاهدة الاحد عشر النزاع بين « المشيخات الصديقة »الا انها منعت«الاعمال الحربية في البحر»ضد سفن الاسطول الانكليزي بحزم ، اي ان الانكليز اصبحوا من هذا التاريخ القيمين على حفظ الامن في الخليج العربي مما اعطاهم امكانية تثبيت اقدامهم في البحرين ايضا .

اصبحت هذه المعاهدة نموذجا مدروسا بعمق للمعاهدات والاتفاقات ـ الكولونيالية اللاحقة . فكما ذكرنا كانت محاربة القرصنة حجة عقدها وهي ما نص عليها ايضا بندها الاول الذي كانت ترجمته الفعلية تعني تجريد القوى العربية الفعالة عن جميع امكانات التحول باتجاه معاكس لصالحهم ومن الطريف ان نذكر ان البند الثاني من المعاهدة اعتبر كل من يزاول « القرصنة» (١٥) ، « عدوا للانسانية جمعاء » . واعطى البند الخامس منها الانكليز مفاتيح الملاحة العربية في الخليج العربي لانهم اصبحوا هم الذين يقررون حجم كل سفينة عربية طولا وعرضا وحمولة ويفرضون على ملاحيها نيل « جوازات » مرور خاصة كان عليهم حملها عند الابحار كي لا تعتبر ملاحتهم مخالفة تستحق العقاب . اما البنود الاخرى فانها فرضت حماية بريطانيا الفعلية على الخليج العربي وقد تحولت المعاهدة الى السند « القانوني » للسياسة البريطانية في المنطقة خلال حقبة تاريخية طويلة جاوزت القرن ونصف القرن . وتحولت في نفس الوقت الى فاتحة لسلسلة اخرى من الاتفاقات المشابهة التي اختاروا لبعضها اسماء معبرة من قبيل « اول اتفاقية لوقف الاعمال الحربية في البحر » لعام ١٨٤٣ (١٦) التي منحت البريطانيين صلاحيات اوسع لاحكام اشرافهم على الملاحة في حوض الخليج العربي ، وهي نفسها التي حولت بعد عشرة اعوام الى ما عرف بـ « معاهدة سلم دائمي » .

هكذا تمكنت انكلترا من وضع اساس واقعي وقانوني راسخ لنفوذها الكولونيالي في الخليج العربي باساليب مرحلتيي الكولونيالية المبكرة والتقليدية ، وقد ازدادت جذور نفوذها رسوخا مع تطور القاعدة الراسمالية في داخل الجزيرة البريطانية وتوسع طموحاتها ومشاريعها بالنسبة للشرقين الاقصى والادنى اللذين كان الخليج العربي يشكل حلقة وصل مائي مهمة بينهما . وتكتسب

---

(١٢) نفس المصدر .

(١٣) للتفصيل راجع : صالح محمد العابد ، ثورة القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧ ـ ١٨٢٠ بغداد ١٩٧٦ ، ص ١٩٧-٢٩٥-٣٤٢ .

(١٤) راجع ا . ف شفاكوف ، نفس المصدر ، ص١٨

(١٥) كان الانكليز يعتبرون كل عمل معاد لهم قرصنة .

(١٦) ل . ى ميدفيدكو ، نفس المصدر ص ، ١٦

الحقيقة الاخيرة اهمية اكبر اذا اخذنا بنظر الاعتبار ان السفن الحربية والتجارية كانت تشكل الاداة الرئيسة للتوسع الاوربي انذاك .

ان المكاسب التي حققها الانكليز حتى منتصف القرن التاسع عشر اعطتهم امكانات اكبر لتحقيق توسعات في النصف الثاني من ذلك القرن . وجاء اخضاع البحرين وقطر خطوة خطوة واسفرت عنها نتائج مهمة بالنسبة لمستقبل جميع اقطار الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية ، ترتبط بداياته (الاخضاع) لموقف شيخيهما « غير الطبيعي » من معاهدة ١٨٥٣ و « تمادى » شيخ البحرين(١٧) بشكل خاص في تبني خط سياسي لم يكن يتفق مع الخط العام الذي بذل البريطانيون الكثير من المساعي والجهود من اجل فرضه ، مما شكل مصدر قلق جدى بالنسبة للندن (١٨) التي اوعزت باتخاذ اجراءات سريعة لارجاع المشيخة « الضالة الى طريق الصواب فما كان من المقيم البريطاني الا ان يحضر بنفسه الى المنامة ، ومن خلال ضغط سافر على الاطراف المعنية اضطرت البحرين عام ١٨٦١ الى قبول اتفاقية مع بريطانيا الزمتها عمليا بجميع بنود معاهدات ١٨٢٠ و ١٨٤٣ و ١٨٥٣ ، مما فتح الطريق امام الاشراف البريطاني على تجارتها وعلاقاتها الخارجية كما اصبح للمواطنين الانكليز بفضلها امتيازات خاصة في صيد اللؤلؤ البحراني وتجارته والاهم من كل ذلك هو ان الاتفاقية مع البحرين صدت بشكل جدى اطماع الدولة العثمانية وخاصة ايران بالنسبة للمنطقة . فعندما قامت القوات العثمانية في مايس ١٨٧١ باحتلال الاحساء المجاورة اعلنت بريطانيا في الحال ان جزر البحرين تقع تحت حمايتها المباشرة بموجب بنود اتفاقية عام ١٨٦١ .

ومن جانب اخر التجأ الانكليز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الى اسلوب استخدام المشيخات الموالية لجلب المناطق الاخرى الى مدار النفوذ البريطاني . فبهذا الاسلوب الناجح والرخيص تمكن الاستعماريون من فرض سيطرتهم ، عن طريق استخدام البحرين كوسيلة ضغط مباشرة على شبه جزيرة قطر التي وقع شيخها ـ اتفاقية خاصة مع الانكليز في عام ١٨٦٨ التزم بموجبها باللجوء الى المقيم ـ البريطاني في الخليج العربي لحل جميع المنازعات التي قد تظهر في المستقبل بين بلاده والبحرين ، وبالطبع لا داعي لتوضيح ابعاد المكتسبات الجديدة التي اصبح ـ بامكان الانكليز نوالها من خلا لدورهم الجديد ، ولكن من الضروري بقدر ذلك الاشارة الى ان هذا الاسلوب تحول الى جزء مهم جدا من السياسة للانكليز لا في مناطق الخليج العربي فحسب بل في جميع اقطار الشرقين الادنى والاوسط التي كان لها حسابها الخاص في مخططاتهم الاستعمارية الطموحة .

ازداد تدخل الانكليز في ادق واهم الشؤون الداخلية لاقطار الخليج العربي بشكل متواز مع ازدياد نفوذهم ، بحيث امتد الامر الى خرق التقاليد القبلية الاصيلة التي كانت في ظروف المنطقة تحول دون ان تطفو مشاكل كثيرة فوق السطح مما كانوا يرغبون على العكس في ظهورها واحتدامها ، فتحولوا من خلال ذلك الى اهم معرقل امام عملية تاريخية بدأت بوادرها تظهر بحكم تطورات داخلية حتمية في الاتجاه نحو توحيد القبائل والمناطق ، والذي كان شرطا اساسيا لاستكمال مستلزمات ظهور ونمو الدولة الحديثة في المنطقة وفي هذا بالذات يكمن اكبر واخطر نتائج التغلغل الكولونيالي في حوض الخليج العربي الذي يعاني حتى يومنا هذا من اثره بشكل حاد وان عملية التوحيد هذه كانت واضحة المعالم في عمان ومسقط بشكل خاص ، ولكن تمكن الانكليز من قلبها الى نقيضها تماما حتى انهم التجأوا في سبيل ذلك الى تنصيب شخص موال لهم هو تركي ابن السلطان سعيد على عرش مسقط عن طريق التهديد بل واستخدام القوة التي بفضلها تمكن السلطان الجديد من الاحتفاظ بعرشه لمدة سبعة عشر عاما ولكن بصعوبة بالغة لان اسلوب مجيئه وحكمه جاء تحديا لمنطق التطور الطبيعي الداخلي لذا لم يكن سهلا عليه وقف هجمات القبائل المعادية التي كانت تدفعها عوامل مهمة الى مستوى التحدى لاكبر قوة عالمية . وقد تكرر نفس الشيء تقريبا ، ولكن في ثوب اخر مع شيخ البحرين في عام ١٨٦٧

---

(١٧) عن بدايات ظهور النفوذ البريطاني في البحرين راجع : ابراهيم خلف العبيدي الحركة الوطنية في البحرين ، بغداد ١٩٧٦ ، ص ٣١-٤٢ لا يمكن الاتفاق مع المؤلف في قوله ان عددا من الاخطاء التي يسردها هي التي دفعت بحكام البحرين « في نهاية الامر الى الارتماء في احضان البريطانيين » ص ٢٣٥ ، الاصلح هو ان السياسة الاستعمارية الانكليزية الحاذقة والماكرة في آن واحد هي التي اجبرت آل خليفة وغيرهم من شيوخ المنطقة على الارتماء في احضان البريطانيين « اذ لم تبق امامهم من سبل يمكن اختيارها او التوفيق بينها » .

(١٨) ك . ل . بندريفسكي ، السياسة الانكليزية والعلاقات الدولية في حوض الخليج باللغة الروسية ، موسكو ١٩٦٨ ص ٦١ .

الذي ابعد عن دست الحكم بيد وجهاء البلاد ، ولكن بقرار من الانكليز ، ليتبوأ مكانه شيخ اخر افتتح عهده بالاعلان عن تمسكه المطلق بمعاهدة عام ١٨٦١ مع بريطانيا .

كانت محاولات وقف التطور المنطقي تدفع بالانكليز ، تحت ضغط زخم الاحداث الى بدع جديدة واساليب غريبة من اجل ضمان الحاضر والمستقبل لمصالحهم . فظهرت في منطقة الخليج العربي عادة عقد المعاهدات السرية التي تعتبر معاهدة عام ١٨٩١ مع سلطان مسقط نموذجا لها بلغ صلاحها في نظر الانكليز لحد انهم تمسكوا بها لغاية عام ١٩٥٨ ــ فقد تعهد فيها السلطان « باسمه وبأسم ورثته واحفاده ، بأن « لا يقوم ابدا » بالتنازل عن مسقط او بيعه او السماح باحتلاله « لغير البريطانيين » (١٩) . وبعد المعاهدة المذكورة بسنة واحدة اعطى سلطان عمان تعهدات مشابهة شملت الالتزام بعدم عقد اي اتفاق من اى نوع كان او حتى المكاتبة مع اية جهة اجنبية سوى بريطانيا وعدم قبول وكلاء الاجانب على الارض العمانية لاى سبب كان الا بموافقة الانكليز (٢٠) .

هكذا تحولت منطقة الخليج العربي الى مختبر كولونيالي اذا جاز القول اعطت تجاربه دروسا قيمة في اساليب التغلغل وايجاد مناطق للنفوذ والعمل من اجل الحفاظ عليها ، وهي بذلك تحولت الى خبرة عملية مهمة افادت البريطانيين كثيرا في مجال عملهم التوسعي خلال المرحلة التالية الاكثر خطورة ، ونقصد بها مرحلة الاستعمار (٢١) التي اصبح الكويت حقلا جيدا لتطبيق اساليبها وتحقيق اهدافها الرامية ــ كما جاء على لسان وزير الخارجية البريطاني بالمرستون الى وضع الخليج العربي تحت سيطرة الانكليز « البحرية بعيدا عن نفوذ اية دولة اخرى تستطيع منازعة هذه السيطرة » ولكن بالمرستون اشترط الا تكلف مثل «هذه السياسة نفقات باهضة »(٢٢) وهو شرط جدير باهتمام خاص عند تقييم الابعاد الحقيقة لسياسة الانكليز في الخليج العربي وسبل تحقيق اهداف تلك السياسة .

يحتل الكويت ، بالرغم من صغر مساحته (١٥/٥) الف كم٢ مكانة ممتازة في حوض الخليج العربي وذلك بفضل اشراف سواحله على جزء عميق من ذلك الممر المائي ولكونه نقطة البداية باتجاه شبه الجزيرة العربية وحوض الخليج العربي نفسه من الشمال ونقطة النهاية بالنسبة لوادي الرافدين فأصبح له ، بحكم ذلك ، حسابه في مشاريع ومخططات التغلغل الاستعماري في المنطقة منذ ظهوره ، وكذلك في صراع القوى الشرقية منذ ان احتدم فمنذ القرن الثالث عشر تعرض الكويت الى هجمات عثمانية وفارسية متتابعة ضمن صراع الامبراطوريتين الشرقيتين من اجل السيادة انتهت عندما تمكن العثمانيون في القرن السادس عشر من ضمه الى ممتلكاتهم الشاسعة . لكن تميز حكم السلاطين هنا دائما بالضعف وعدم الاستقرار والتردد الذي نجم بشكل عام عن تردى موقع العثمانيين في مجمل مناطق الخليج العربي ، وقد تحول هذا الواقع الى عامل مساعد سهل الى حد ما التغلغل الاوربي فيه .

كان من الطبيعي ان تسبق انكلترا ، اكبر دولة اوربية رأسمالية متطورة ذات مصالح ثابتة وطموحات كبيرة في بلاد ما بين النهرين ومشاريع جدية بالنسبة لمناطق شتى من الامبراطورية العثمانية ، ان تسبق غيرها في التوجه نحو الكويت الذي فطن الانكليز الى اهميته اثناء الاحتلال الايراني لمدينة البصرة في الفترة الممتدة بين عامي ١٧٧٥ و ١٧٧٩ حيث لم يجدوا سبيلا اخر لايصال بريد الهند الى حلب سوى الكويت وقد دخلت اول سفينة تابعة لشركة الهند الشرقية تجاه مياه الكويت الاقليمية في عام ١٧٧٦ ثم زارت في السنة التالية سفينة اخرى الكويت اتصل قبطانها بأميره مما اسفر عن وضع بداية جيدة لاقامة علاقات ودية بين الطرفين فوصل في عام ١٧٧٨ اول ممثل رسمي للشركة الى الكويت (٢٣) تطورت هذه البداية ببطء،

---

(١٩) راجع : ل . ى ميدفيدكو ، نفس المصدر ص١٨

(٢٠) راجع الدكتور سيد نوفل ، الخليج العربي او الحدود الشرقية للوطن العربي ، بيروت ١٩٦٩ ص٤١٩ .

(٢١) الكولونيالية هي اول مظهر للتوسع الراسمالي الاستغلالي الخارجي ، تتميز بسبل بدائية نسبيا في اسلوبي التغلغل والاستغلال تتفق مع مستوى تطور الانتاج في مراحل التطور الراسمالي الاولي وحاجة البلد الراسمالي الملحة للرساميل المتزايدة التي يشهد البلد ذاته عملية تراكمها في هذه المرحلة . أما الاستعمار وهو اعلى مراحل الراسمالية فيتميز باساليب متطورة للتغلغل الذي لا يقتصر على تصدير البضاعة واستيراد المواد الخام بل يمتد الى تصدير رأس المال الذي يعتبر من اخطر اساليب الاستغلال الراسمالي .

(٢٢) مقتبس من : العميد محمود بهجت سنان ، ابو ظبي واتحاد الامارات العربية ومشكلة البريمي ، بغداد ١٩٦٩ ، ص١٧ .

(٢٣) للتفصيل راجع « الكويت المعاصر » مجموعة مؤلفين ، باللغة الروسية موسكو ١٩٧١ ، ص ٩١-٩٢

ولكن بثبات ، واجتازت جميع التجارب الصعبة التي مرت بها المنطقة جراء هجمات الوهابيين ونشاطات العثمانيين وتدخلات المصريين ازدادت اهمية الكويت في نظر الانكليز بسرعة منذ اواسط القرن الماضي ، خاصة بعد ان ارتبط اسمه منذ تلك الفترة بمشاريع السكك الحديد الطموحة التي كانت تفكر في اقامة « قناة سويس » جديدة من نوع خاص عن طريق ربط سواحل المتوسط الشرقية بسواحل الخليج العربي الشمالية عن طريق خط حديدي مباشر يمر عبر العراق ، وينتهي ـ حسب خطط بعضها ـ عند الكويت(٢٤) . ففي وقت مبكر جدا بالنسبة لمثل هذه المشاريع اقترح الجنرال جيسني (عام ١٨٥٠) اقامة سكك حديد تمتد من سواحل البحر الابيض المتوسط وتنتهي في الكويت مباشرة . ان ظهور مثل هذه المشاريع هو بحد ذاته مؤشر مهم لطابع المرحلة الجديدة لتغلغل الدول الراسمالية الكبرى في المنطقة فهو تغيير نوعي في الوسيلة وتطوير كبير في الغاية . وكانت الاخيرة بالنسبة للانكليز تحويل الخليج العربي برمته الى « بحيرة بريطانية » ، فازداد ، تبعا لذلك ، موقع الكويت اهمية في مخططات الاستعماريين ، لاسيما بعد ان تمكن الانكليز من تثبيت مواقعهم اكثر من السابق في مناطق الخليج العربي الاخرى . ولكن ظهرت امام مخططاتهم في العقود الاخيرة من القرن الماضي عقبات جدية ارتبطت باهتمام الدول الاوربية الاخرى بالكويت من نفس المنطلقات التي كانت تحرك الانكليز للاهتمام المتزايد به . لعبت المانيا بحكم ظروفها المناسبة كأقرب دولة محظوظة لدى الباب العالي ، ثم روسيا بحكم كونها اقرب دولة اوربية من المنطقة جغرافيا ونتيجة اهتماماتها الكبيرة بايران ، واخيرا فرنسا كدولة راسمالية متطورة لها اطماعها الواسعة ، دور المنافسة الرئيسة لانكلترا في الكويت والخليج العربي عموما . ولقد اصبح النزاع بين هذه القوى المتصارعة فيما بينها اهم ميزة اضفت على تاريخ المنطقة طابعا خاصا .

ان توجيهات روسيا القيصرية نحو « المياه الدافئة » معروفة تاريخيا وهي نفسها كانت تشكل العامل المحرك الاساسي لسياستها نحو الخليج العربي الذي كانت تبغي الوصول اليه عبر الاراضي الايرانية بشكل خاص ، ـ لا سيما بعد ان اصبح للقياصرة نفوذ واضح على حكام هذه البلاد(٢٥) ففي بداية عام ١٩٠٠ انتشر بسرعة في لندن نبأ محاولة الروس لمد خط حديدي عن طريق ايران الى بندر عباس طوله الفا كيلومتر ، حتى ان الصحافة الانكليزية ذكرت بأن المهندسين الروس باشروا فعلا بالعمل لانجاز المشروع(٢٦) . بالطبع لم يخل ذلك من بعض المبالغة المقصودة لاسباب نذكرها فيما بعد . ولكن في نفس الوقت كان يستند الى واقع الاهتمام الروسي بالخليج العربي ففي نفس التاريخ تقريبا ظهرت اول سفينة حربية روسية في مياه الخليج العربي حاولت تفريغ ٣٠٠ طن من الفحم في ميناء بندر عباس بهدف تحويله الى مركز تزويد السفن الروسية بالوقود ، مما كان يدل بلا شك على نوايا روسيا للتغلغل في المنطقة التي اصطدمت في الحال بمقاومة عنيفة من جانب الانكليز الذين ارسلوا سفينة حربية على جناح السرعة الى بندر عباس بقصد الضغط على حاكمه الذي خشي عواقب المحاولة بسبب التدخل الانكليزي فمنع السفينة من افراغ حمولتها . ولكن مع ذلك توجهت السفينة الروسية الى موانىء اخرى في المنطقة ، فوصلت البصرة ومنها ابحرت برفقة القنصل الروسي في بغداد الى الكويت وقد تعقب طراد بريطاني خط سيرها خطوة فخطوة . مع ذلك استقبل امير الكويت القنصل الروسي برحابة صدر وعند عودته عن طريق البر بعث برفقته خمسين فارسا من رجاله تكريما له .

اتبعت الخطوة الروسية الاولى اجراءات اخرى بقصد وضع اساس قوى للنفوذ في مناطق الخليج العربي التي بدأت تجلب نظر الراسماليين الروس بشكل متزايد خاصة لانهم جربوا بنجاح ماذا تعني خيرات الشرق بالنسبة لمصالحهم(٢٧) .

---

(٢٤) للتفصيل حول هذه المشاريع يمكن الرجوع الى : ـ
Zaki Saleh,: Mesopotamia, Iraq 1600-1914, Baghdad, 1957.

(٢٥) عن النفوذ الروسي في ايران قبل الحرب العالمية الاولى راجع :
G. Lenczowski, The Middle East in world Affairs, second Ed. New York 1956, pp. 27. 33.

(٢٦) راجع : ك . ب بندريفسكي ، صراع الاستعماريين من اجل السيطرة على الخليج في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين « نتاجات جامعة اسيا الوسطى الحكومية لينين » ١٩٥٥ ، ص ١٣٦ .

(٢٧) بدأت منذ اواخر القرن الثامن عشر توجهات روسية القيصرية الجدية نحو الشرق وتمخضت عن تحقيق مكاسب كبيرة على حساب الامبراطوريتين المجاورتين العثمانية والصفوية فضمت مناطق شاسعة غنية من القفقاس وغيرها الى اراضيها مما ساعد في تقوية القاعدة .

ومن هنا لم يكن عبثا ان حثت جريدة « روسيا » في عددها الصادر يوم ١٠ تشرين الاول عام ١٩٠١ الحكومة القيصرية للعمل باتجاه استغلال مشاكل بريطانيا في الخليج العربي ومزاولة الضغط على الباب العالي بقصد اجباره على التنازل عن الكويت لروسيا . وفعلا ازداد النشاط الروسي في الخليج العربي بشكل ملحوظ ، فبدأت السفن الروسية تقوم بزيارات منظمة لبعض مناطقه وتم فتح قنصليات روسية في البصرة وبندر عباس وبوشهر وغيرها والاهم من كل ذلك قررت السلطات الروسية في عام ١٩٠١ تنظيم خط بحري لنقل البضائع والمسافرين بين اوديسا على البحر الاسود والخليج العربي خصصت له اربع سفن من بينها سفينة « كارنيلوف » التي كانت حمولتها ثلاثة الاف طن (٢٨) ، مما ادخل قلقا « مشروعا » في نفوس البريطانيين الذين التجأوا الى نوع من « سياسة الاغراق » بقصد واد المحاولة الروسية في مهدها ، فقاموا بتخفيض اجور النقل الى اوربا بشكل عجيب بلغ ما لا يقل عن ٧٠ ٪ من التعريفة السائدة ، اذ بدأوا يأخذون عن نقل كل طن ١٥ شلنا بدل ٥٠ (٢٩) وبما ان الانكليز كانوا يفضلون ، كما يبدو ، منافسة الروس في اى مكان عدا حوض الخليج العربي (٣٠) فانهم عرضوا ـ النشاط الروسي في الخليج العربي بأطار اكبر بكثير من حجمه الحقيقي وهم يقصدون من ذلك التخفيف عن الضغط الالماني على انفسهم بتوجيه انظارهم الى الخطر الروسي (٣١) الذي صوروه لهم وكأنه موجه ضد مصالح الطرفين الالماني والانكليزي بنفس المستوى (٣٢) ولكن كان الواقع يقول شيئا اخر اقوى من التصور المصطنع الذي لم يستطع التخفيف عن التناقض الانكلو ـ الماني المتزايد حدة مع مرور الزمن واقتراب الحرب ، وفي منطقة الخليج العربي تحول الكويت الى اللولب لذلك التناقض . ثم ان الالمان كانوا من الذكاء والخبرة بحيث لم يصعب عليهم فهم المقاصد الخافية للعبة الانكليزية المفضوحة ، لذا نراهم يحاولون بدورهم رد الكيد نحو نحورهم بأن ابدوا « الارتياح » من ظهور النفوذ الروسي في المنطقة ذلك لانهم كانوا يتوقعون ان يؤدى الامر الى تعميق ـ التناقضات الروسية ـ الانكليزية التي كانت تخدم حتما مصالحهم هم بشكل غير مباشر ولا يوجد تعبير ابلغ عن هذه الحقيقة من الرسالة الخاصة التي بعثها الامبراطور الالماني ولهيلم الثاني الى القيصر الروسي نيقولاى الثاني في ٣ كانون الثاني عام ١٩٠٢، أي في عز الصراع الاوربي من اجل الخليج العربي والتي ايد فيها صراحة ظهور السفن الروسية في مياه الخليج العربي قائلا للقيصر بالحرف الواحد « من الذكاء جدا ان رأيتك ظهرت ها هناك » ، وهو لم يخف سبب مثل هذا الموقف « الودى » جدا و « الحار » للغاية ، اذ بدأ يتكلم في نفس الرسالة عن « دولة ما » (٣٣) التي تحاول بالاستناد الى « تجاربها الغنية »(٣٤) « خلع علم السلطان وانزال مقدار معين من الجيش والمدافع ثم رفع هذا العلم او ذاك بحجج مختلفة حتى تقول في النهاية : ها هنا انا وسوف ابقى حيث انا ! » . بعد هذا المدخل الذكي ينتقل الامبراطور الى بيت القصيد حينما يضرب على الوتر الحساس بالنسبة لمشاريع روسيا فيقول للقيصر : « وفي مثل هذه الحالة انها (اى تلك الدولة ـ ع . ع . أ) تستطيع تحقيق السيطرة على جميع طرق التجارة الايرانية المؤدية الى الخليج العربي ومن ثم على كل ايران ثم «لا سامح الله»(٣٥) على كل خططك لتثبيت التجارة الروسية التي وضعت لها بداية موفقة بعقد اتفاق كمركي مع ايران » . ولم يتردد الامبراطور المعروف بجبروته وغطرسته العسكرية من التباكي في رسالته بسبب « قوة اسطول العدو » و « ضعف اساطيلهم » هم مما يجعل ـ وهنا بيت قصيد اخر ـ « من خط بغداد الحديدي ـ ع . غ . أ الذي أنوى تشييده بمساعدة الرأسمال الالماني ، امرا ضروريا » ، والاطرف من

---

(٢٨) ك . ب ، نفس المصدر ص ١٣٧

(٢٩) شولتسي ، الصراع من اجل نفط ايران وميسوبوتاميا ، ص ٦١-٦٢ (مقتبس من نفس المصدر ص ١٣٧)

(٣٠) راجع : قدري قلعجي نفس المصدر ص ٤٦٢-٤٦٣ ، ٤٧٧ ـ ٤٠٤٧٨

(٣١) حتى ان رئيس الوزراء البريطاني نفسه اخبر السفير الالماني بان النشاط الروسي في الخليج العربي يهدد مصالح المانيا كما يهدد مصالح بريطانيا « كما انه اوحى بنفس الرأى للسفير النمساوى بقصد ان يقوم الاخير ايضا بتنبيه الالمان الى » الخطر .

(٣٢) ان اثار هذا التصور المبالغ فيه قد انتقل على ما يبدو الى معظم المؤلفات الغربية المكرسة للبحث عن قضايا الخليج العربي • ففي رأى ولسن مثلا ان النشاط الروسي في الكويت والذي شمل كما يذكر ، العمل من اجل اقامة مركز خزن للفحم وميناء ونقطة نهاية لمشروع سكة حديد ، هو الذي دفع الانكليز الى تغيير سياستهم تجاه الدول الاخرى في هذه البلاد فبدوا بمقاومة نفوذهم فيها .

(٣٣) يقصد بها الانكليز بالطبع

(٣٤) في النص : الناجحة

(٣٥) في النص ورد التعبير الاوربي الشائع بالبصق مرتين على الارض

ذلك « يدغدغ » الامبراطور قيصرا حينما يقول له انه لو تم حتى الان انجاز الخط « لاستطعت ارسال عدة كتائب من اوديسا الى الكويت مباشرة » وحينذاك لما تمكن « اقوى اسطول « تابع » لدولة ما » من التصدى لهذه القوة « بحكم اسباب كثيرة » (٣٦) . وبالطبع لم تستطع اللعبة الالمانية بدورها التأثير على الموقف لان حكم التناقضات كان اقوى منها ، فظهرت المنافسه الانكلو ـ المانية اقوى واشد من المنافسة الانكلو ـ روسية ذلك لان الاولى كانت تعبر عن تناقض اعمق واخطر من الثانية بكثير ، حتى انها دخلت ضمن العوامل التي ادت الى نشوب ـ الحرب العالمية الاولى التي شكلت الدولتان الاوربيتان الاقوى ـ المانيا وبريطانيا ـ قطبيها الرئيسيين . ومن هنا لا يمكن النظر الى ما ذكره اللورد هاملتن من انه يفضل التعاون مع الالمان على التعاون مع الروس(٣٧) الا كتعبير عن التحرك السياسي الانكليزي المراوغ او مجرد راي شخصي ، اذ لم تمض على مثل ذلك التصريح سوى سنوات قليلة عندما تعاونت بلاده بشكل سرى مع روسيا ضد المانيا من اجل تقسيم المنطقة بموجب معاهدة «سايكس ـ بيكو» وقبلها دخلتا سوية الحرب ضد المانيا .

اما الالمان فانهم كانوا ينظرون الى الكويت كنقطة نهاية مشروعهم المعروف « سكة حديد بغداد» التي شغلت المكانة الابرز في مخططاتهم بالنسبة لكل الامبراطورية العثمانية وتوجيهاتهم الجدية نحو الشرق ، وقد تمكنوا من نيل امتياز بنائها عام ١٨٨٨ من الباب العالي كما انهم فكروا قبل ذلك في تحوله الى محطة تزويد السفن الالمانية بالفحم وكان امامهم مجال تحرك ارحب من الروس والفرنسيين بفضل قوة مركز بلادهم لدى الباب العالي . من جانب اخر استطاعت المانيا ايجاد مواقع اقدام لها في المناطق القريبة من الكويت ففي عام ١٨٩٧ تم تأسيس اول وكالة قنصلية في بوشهر علما بانه كان يوجد انذاك في كل ـ منطقة الخليج العربي ستة المان فقط كان احدهم يمتلك شركة خاصة لاستخراج اللؤلؤ حاول ـ الروس كسبه الى جانبهم . بعد ذلك بسنة قام الضابط الالماني فيرتر بزيارة خاصة لمنطقة الخليج العربي اجرى خلالها اتصالات واسعة مع شيوخها وبعد عودته اقترح في تقرير خاص قدمه الى السلطات العليا حول الخليج العربي ، عقد معاهدة مع فيصل بن تركي سلطان مسقط تتعهد المانيا بموجبها الوقوف الى جانبه لردع كل اعتداء اوربي وتقوم بتزويد قواته بعدد من المدافع مع ٣ـ٤ الاف بندقية(٣٨) ، الا ان الالمان لم يقدموا على مثل هذه الخطوة خوفا من اثارة الانكليز كما جاء ذلك في المشاورات الرسمية التي اجريت على ارفع المستويات بشأن تقرير فيرتر استفسر خلالها عن رأى السفير الالماني في لندن حول الموضوع .

فاق اهتمام الالمان بالكويت اهتمامهم باى جزء اخر من الخليج العربي ، وهم قدروا بذكاء ان اقصر طريق الى الكويت بالنسبة لهم انما يمر من خلال اعادته الى حظيرة الامبراطورية العثمانية المنحلة ، ويكمن في ذلك تفسير الاهتمام المفاجيء الذي ابداه الباب العالي في السنوات ـ الاخيرة من القرن الماضي بالكويت بعد ان بلغ تجاهله له قبل ذلك حد اقتراح الحماية البريطانية عليه ، ولكن اذا به يعلن الكويت فجأة سنجقا (قضاء) ويبعث في شباط عام ١٨٩٧ بشخص اخر لاشغال المنصب الجديد الذي لم يقدر له تبوُّه ابدا . وقد جاء الرد الانكليزي سريعا وحاسما ـ عقد معاهدة « سرية » مع امير الكويت الجديد صاغت بنودها الحماية البريطانية الفعلية دون تسميتها باسمها ولكن سرعان ما اكتشف امر المعاهدة التي اثارت ضجة كبيرة في الاوساط السياسية الاوربية دخلت التاريخ باسم « الازمة الكويتية »(٣٩) التي احتدمت اكثر عندما اعلن الانكليز صراحة انهم لا يسمحون للالمان بمد سكة حديد بغداد الى الكويت مما استدعى احتجاجا المانيا شديد اللهجة لاسباب مختلفة عن اسباب كل من روسيا وفرنسا واضطر الباب العالي تحت ضغط الاطراف الثلاثة الى اتخاذ قرار بشأن ارسال قوات عثمانية لاحتلال الكويت ، الا ان ـ موقف الانكليز المتشدد حال دون تحقيق ذلك الاجراء فبلغ التوتر بين لندن وبرلين اشده والتجأ الطرفان الى اتخاذ خطوات جديدة معاكسة بغرض زحزحة مركز الطرف الاخر خطت المانيا انذاك الخطوة الخطيرة الاولى عندما اجبرت الدولة العثمانية على التوقيع على معاهدة في عام ١٩٠١ تعهد الطرفان بموجبها بالعمل بجد من اجل الحفاظ على «الوضع

---

(٣٦) راجع : « مراسلات ولهيلم الثاني مع نيقولاى الثاني » باللغة الروسية ص ٣٩ (مقتبس) من ك . ب بندريفسكي، نفس المصدر ، ص ١٥٢)

(٣٧) راجع الدكتور محمود على الداود ، الخليج والعلاقات الدولية ، الجزء الاول ص ١٦٦ .

(٣٨) راجع : ك . ب بندريفسكي ، نفس المصدر ، ص ١٣٩ ـ ١٣٠

(٣٩) « الكويت المعاصر » ص٩٨ .

الراهن » في الكويت وهددت المانيا باتخاذ اجراءات اخرى على الصعيد الدولي . جاء رد الفعل الانكليزي اقوى في نفس السنة بطرد ممثل الباب العالي من الكويت واعلنوا الحماية البريطانية الفعلية على البلاد .

وصلت الازمة ذروتها اثر اتخاذ الاجراءات الاخيرة من جانب الطرفين المتنازعين ويظهر — مدى اهتمام الانكليز بالموضوع من خلال الزيارة التي قام بها نائب الملك البريطاني في الهند اللورد كيرزن للكويت ضمن « جولته التفقدية » للخليج العربي ، اراد بزيارته ، التي لم تخل ابدا عن روح التحدي ، اظهار عزم بريطانيا الاكيد على الاحتفاظ بالكويت لنفسها ، كانت في الواقع مظاهرة قصدت بها لا المانيا وحدها بل كذلك كلا من فرنسا وروسيا ايضا . وقد روعي نفس الهدف في قرار حكومة الهند عام ١٩٠٤ بارسال وكيل سياسي انكليزي الى الكويت وفتح مكتب لبريدها هناك .

هكذا لم ينته العقد الاول من القرن العشرين عندما اصبحت بريطانيا الدولة الاوربية الوحيدة تقريبا المهيمنة على جميع مرافق الحياة السياسية والاقتصادية للكويت خاصة بعد ان اضطر اميره للتوقيع في تشرين الاول عام ١٩٠٧ على معاهدة سرية جديدة اعتبرت الدولة العثمانية بموجبها من الدول الاجنبية بالنسبة للكويت وابتداء بها لم يتوجس الانكليز خطرا كبيرا من منافسة الدول الاوربية الاخرى في المنطقة ، حتى ان الضجة الجديدة التي اثارتها المانيا خلال اعوام ١٩١١ — ١٩١٣ لم تسفر عن نتيجة تذكر بل على العكس من ذلك فان الانكليز هم الذين حققوا في ايام « الازمة الجديدة » مكاسب اخرى لا سيما بعد ان اضطرت الدولة العثمانية للتوقيع في عام ١٩١٣ على اتفاقية خاصة مع الانكليز حول الخليج العربي اعترفت فيها بنوع من الحكم الذاتي للكويت الذي رفع علمه الخاص لاول مرة في تاريخه الحديث ، كما وافقت الدولة العثمانية على مضامين الاتفاقات البريطانية الكويتية . وبه ، يمكن القول ان حكم الانكليز حول تحويل الخليج العربي الى « بحيرة بريطانية » قد تحقق . وما ان اعلنت الحرب العالمية الاولى حتى تم كشف الاوراق جميعها وكان الاعلان . عن . « استقلال الكويت تحت الحماية البريطانية » في تشرين الثاني عام ١٩١٤ من ابرزها .

يجدر بنا ، قبل ان نختتم الموضوع ، الاشارة الى حقيقة اخرى بصدد الصراع الدولي واساليبه في الخليج العربي . فكما لاحظنا ان جميع الدول الرأسمالية الكبرى دخلت جلسة ذلك الصراع قبل الحرب العالمية الاولى عدا اكبر دولة رأسمالية هي الولايات المتحدة الاميريكية التي فاق انتاجها الصناعي ونشاطها المالي ومجمل امكاناتها الاقتصادية اكبر دولة اوربية الى حد كبير للغاية ، ولكنها ظلت مع ذلك بعيدة عن حوض الخليج العربي وحتى عن كل الامبراطورية العثمانية وبالطبع لا يكمن سبب ذلك وهناك بحكم تشابه العلاقات الرأسمالية في هذه وتلك ، انما السبب يكمن في ان الرأسمالية الامريكية كانت منشغلة انذاك بالنصف الغربي من الكرة الارضية خاصة بامريكا اللاتينية والى حد اقل بالشرق الاقصى وقبل الحرب بفترة وجيزة ظهرت اهتماماتها بالشرق الاوسط والتي دخلت مرحلة خطيرة بعد ان وضعت الحرب العالمية الاولى اوزارها وذلك اثر انفجار الطاقات الرأسمالية الامريكية الهائلة الجديدة التي ادت في سنوات الحرب بالذات الى تراكم قياسي للراسمال المالي الكبير الذي بدأ يبحث بعد الحرب عن كل منفذ يمكن اختراقه باى شكل واسلوب كان .ولكن لا بأس من ان نشير هنا الى حقيقة تاريخية مهمة وطريفة في آن واحد هي ان اوساط التبشير الامريكية بدأت قبل الحرب تهتم بهذه المنطقة ، وكما هو معلوم فان مثل هذا الاهتمام لازم التغلغل الاستعماري لجميع الدول في الشرق الاوسط ، اذ ان المبشرين لعبوا دائما دور الطلائع الاولى التي تسبق عادة قدوم الجيش الغازي . وهذا بالضبط هو ما حدث بالنسبة للولايات المتحدة الامريكية ايضا . ففي عام ١٨٨٩ تم تأسيس جمعية تبشيرية خاصة في ولاية نيوجرسي باسم « البعثة العربية » التي اثارت حملة دعاية لخططها الرامية الى نشر المسيحية بين سكان « شبه الجزيرة العربية .... » !! وفي عام ١٨٩٠ قام ممثلان عن الجمعية بزيارة مناطق ساحلية مختلفة من شبه الجزيرة العربية قر رايهما اخيرا على جعل البصرة مقرا للبعثة ، وتم بالفعل في السنة التالية تاسيس مركز « البعثة العربية » فيها ، كما تم اقامة فرع للبعثة في البحرين عام ١٨٩٣ . وقد وضعت البعثة نصب عينها مهمة ايجاد قاعدة لها بين مسلمي المنطقة ، وهي فعلا زاولت نشاطا واسعا في البصرة ومناطق

خليجية ساهمت في اعطاء فكرة مثالية عن الولايات المتحدة الامريكية للسكان (٤٠) .

تعطي الحقائق والملاحظات المذكورة انفا امكانية التوصل الى عدد من الاستنتاجات التاريخية اهمها :

الخليج العربي هو أول منطقة عربية شهدت تغلغل النفوذ الكولونيالي الاوربي ومرت بجميع مراحل هذا التغلغل منذ بداية ظهوره حتى انتقاله الى مرحلة اعلى ، هي الى ذلك تعتبر نموذجا امثل للصراع الدولي في كل الشرق الاوسط فقلما نجد منطقة اخرى تصارع فيها مثل هذا العدد الكبير من الدول الاوربية الكبرى (البرتغال ، انكلترا ، هولندا ، المانيا ، روسيا ، وفرنسا) ومن جانب اخر انها كانت محط انظار الدولتين الشرقيتين الكبيرتين تركيا وايران الا انهما اصبحتا ، في عهد ظهور النظام الكولونيالي والى حد كبير بسببه ، اضعف من ان تستطيعا التأثير بشكل ملموس على سير الاحداث في الخليج العربي .

تحول التغلغل الكولونيالي الى اهم عامل معرقل امام تطور العلاقات ـ الاجتماعية والاقتصادية وبالتالي السياسية بشكل طبيعي في اقطار الخليج العربي التي بدأت قبل ذلك التغلغل وفي بداياته تشهد ظهور نزعات استقلالية عن السلطة العثمانية واتجاهات توحيدية قبلية كان من شأنها ، لولا الكولونياليون التأثير على مصير المنطقة بشكل اخر . ومع ان الكولونياليين ومن ثم الاستعماريين اضطروا بسبب حاجاتهم الذاتية لنقل بعض مظاهر الحضارة البورجوازية الجديدة الى مشيخات الخليج العربي ، الا انهم تسببوا في نفس الوقت في خنق التحولات الداخلية الاقتصادية المهمة التي اصبحت في اقطار اخرى مجاورة تشكل في كل الاحوال قاعدة لا بأس بها للتقدم الاجتماعي. وربما تكفي الاشارة هنا الى مثل واحد من مدينة الكويت التي تأخرت عن الركب كثيرا بعد فرض السيطرة الانكليزية عليها ، فأن وضعها قبيل الحرب الحرب العالمية الاولى لم يعكس التطور الطبيعي بالقياس الى ما ذكره الرحال الهولندي الشهير نيبور اثر زيارته لها في عام ١٨٦٥ عندما شاهد فيها ما لا يقل عن عشرة الاف نسمة كان اكثر من ثلثيهم منهمكين بجد في النشاط الاقتصادي الذي حدده هو بالتجارة وصيد الاسماك واستخراج اللؤلؤ(٤١) ساعدت الظروف الدولية الى جانب الموقع الجغرافي لحوض الخليج العربي الدول الاوربية في تحقيق مكاسب كبيرة في المنطقة تفوق الى حد واضح ما حققته قبل الحرب في اجزاء الشرق الاوسط الاخرى وقد ارتبطت دوافع التحرك لنيل هذه المكتسبات في البداية باعتبارات ستراتيجية ثم اقتصادية ، ولئن احتفظت الاولى باهميتها السابقة ، فأن الاخيرة ازدادت ـ اهمية مع مرور الزمن وبشكل خاص بعد ان تمكن الجيولوجيون الانكليز منذ عام ١٩١٠ من تحديد مكامن النفط في البحرين (٤٢) كما تم قبل ذلك بمدة منح امتياز تنقيب عن النفط في جنوبي ايران الى شركة دارسي البريطانية التي اسفرت اعمالها عن اكتشاف البترول بكميات تجارية في منطقة لا تبعد كثيرا عن سواحل الخليج العربي الذي اصبح بذلك المنفذ الطبيعي لتسويقه مما تحول الى عامل جديد لازدياد اهميته الستراتيجية والاقتصادية لا سيما بعد ان تحولت السفن الى استخدام النفط كوقود.

البرتغاليون هم اول من دخلوا الخليج العربي، ولكن الانكليز هم اخر من بقوا فيه والذي اصبح حكرا عليهم قبيل الحرب العالمية الاولى ، وهم استخدموا في اقطاره جميع الاساليب الكولونيالية ومن ثم الاستعمارية واكتسبوا بفضل عملهم فيه خبرات وتجارب واسعة افادتهم كثيرا في نشاطاتهم التوسعية التي امتدت جذورها الى معظم مناطق آسيا وافريقيا .

التجأت الدول الاوربية في عملية تغلغلها السياسي والاقتصادي الى جميع الاساليب بما فيها أرخصها واكثرها التواء ، وهي جميعها كانت متفقة من حيث الهدف النهائي الذي كان يحوم

---

(٤٠) حول نشاطات البعثة راجع كتاب القنصل الروسي في البصرة الكسندر اداموف الذي عاصر وراقب الاحداث الجارية في المنطقة قبل الحرب الاولى بدقة : أ . اداموف، العراق العربي ولاية البصرة ماضيها وحاضرها باللغة الروسية بطرسبورك ١٩١٢ .

(٤١) راجع : ن . أ دلين ول . زفيريفا ، الكويت باللغة الروسية ، موسكو ١٩٦٨ ، ص ١٢

(٤٢) راجع :

R.H. Sanger, The Arabian peninsula, New York, 1954. p. 147.

حول احتكار السيطرة على الخليج العربي باقل كلفة ممكنة لتحقيق اكبر المكاسب الممكنة وبحكم ذلك تحول التغلغل الاوربي الى العامل الخفي والظاهري لتحريك احداث الخليج العربي في تاريخه الحديث، وتحول معظم متنفذي اقطاره الى بيادق يحركها الاستعماريون حسب مقتضيات مصالحهم ، فأريقت دماء بريئة واغتصبت عروش كثيرة وشردت عوائل عريقة من اجل خدمة الاجنبي ، وهي بمجموعها حددت ابعاد التاريخ الحديث للخليج العربي .

Summary

Notes on the Methods of European Influence and Infiliteration in the Arab Gulf before World War I

by Dr. Abdul-Jabbar Itiwi Jasim

This article discusses the reasons and methods of the gradual European infiltration into the Arab Gulf. The author believes that the Arab Gulf was a unique example of international competition to dominate an area, as Portugal, Britain, Holland, Germany, Russia, France, Turkey, and Persia all had an interest in the struggle; however the last two powers' interest gradually faded after the appearance of colonial rule. European Colonialism created the following situations in the area:

(1) Colonial occupation became the major obstacle to social, economic and political development in the Arab Gulf countries.

(2) The European countries achieved economic and strategic gains in this area.

(3) The British were more successful in their methods and used this experience in their expansion policy in other areas.

(4) Puppet rulers were created by the European powers as a cheap method of control, which led to sporadic revolts.